

سلسلة

منهجيات قرآنية للمجالس الرمضانية

المجموعة (الأولى)

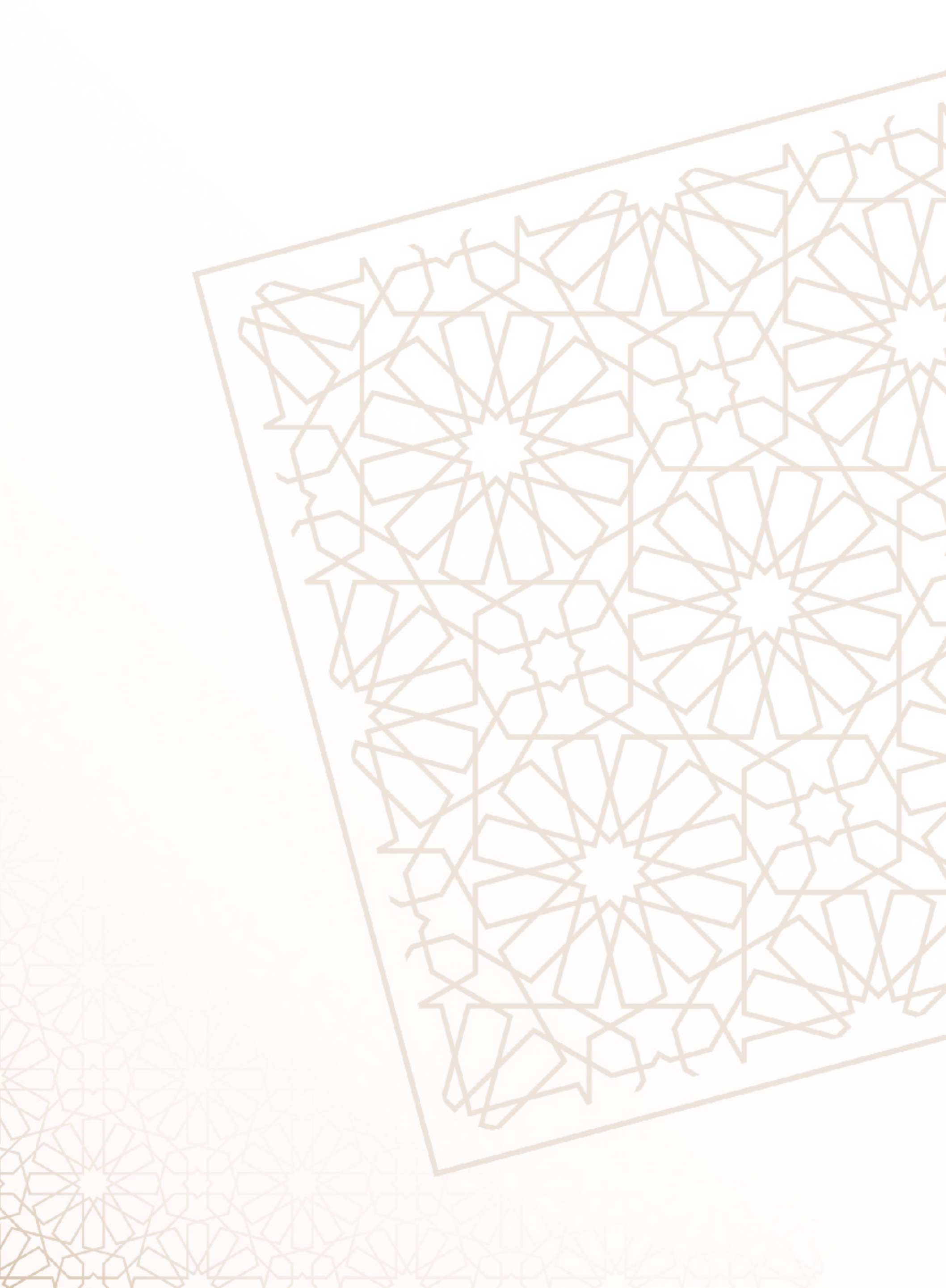


تأملات

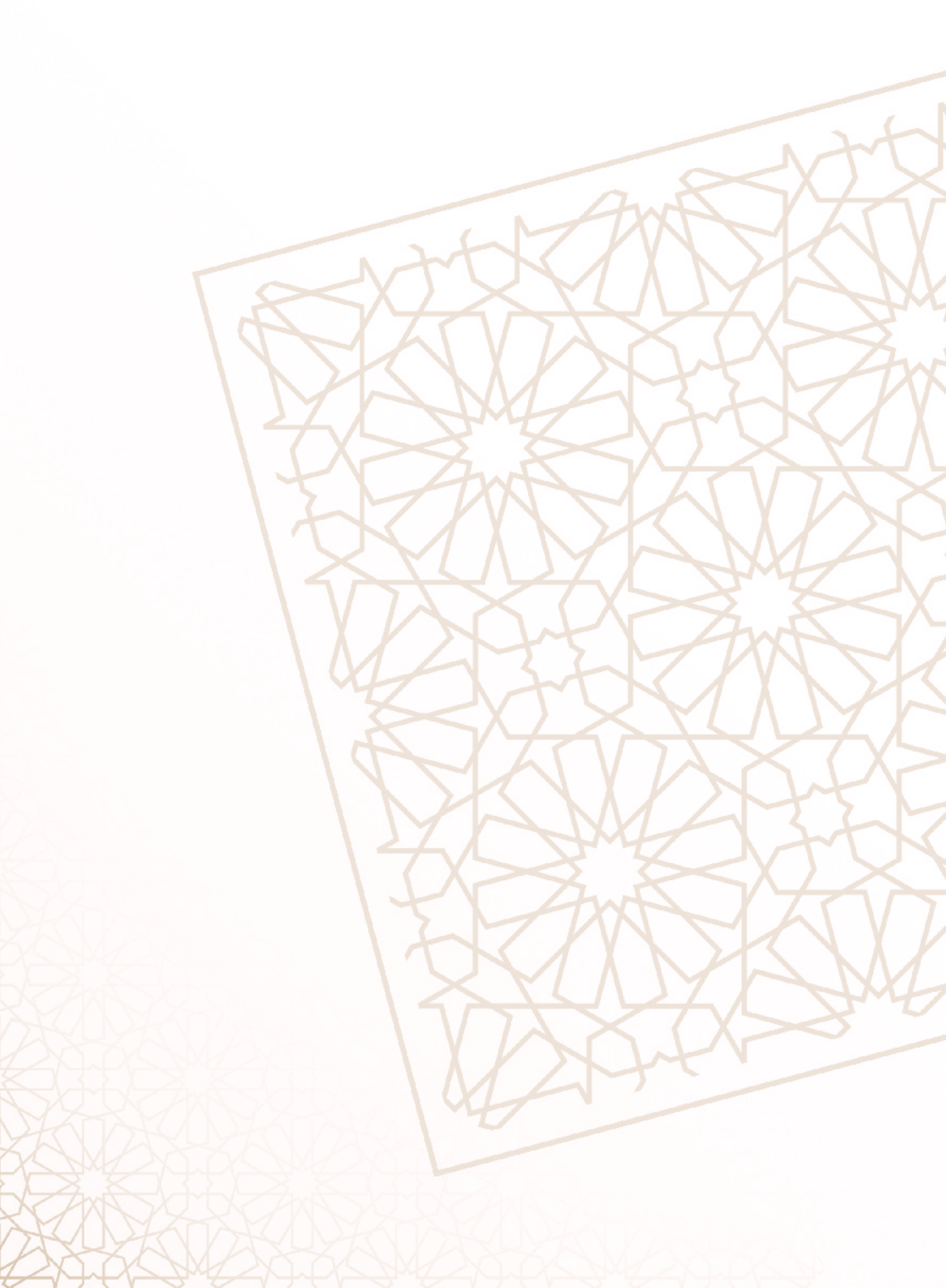
أ.د. فخر الدين بن الزبير المحسي

كلية الدراسات القضائية والأنظمة

جامعة أم القرى - مكة المكرمة




بسم الله الرحمن الرحيم



مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وبعد:

فإن المؤمن الذي يتطلب لنفسه خيري الدنيا والآخرة: لابد أن يصدر عن القرآن العظيم: قراءة وتفسيراً وتدبراً وعملاً وتعليمـًا؛ فلذلك كان هذا المختصر صادراً عن ورده، منتظمـًا في عقده، ويحوي جملة من التأملات: العلمية والوعظية، والتي تناسب الحلقاتِ التدبرية، ومعلوم أن من أفضل أوقاتها شهرَ رمضان، الذي أنزل فيه القرآن.

وقد جاءت بأخصر العبارات، التي تدل علىٰ كليات؛ ولذلك سميت بالمنهجيات.

وهي حول مختلف الموضوعات، مع تنوع في الآيات، أردتها كالحديقة الغناء، فلا يخرج مرتادها إلا بخيراتها: إما بقطف ثمارها، أو استنشاق أزهارها، أو الاستظلال بدياحها،

ولا أقل من التنسم بنسماتها.

وهذه هي المجموعة الأولىٰ في هذا الموسم، وستعقبها بإذن الله تعالىٰ مجموعات، مع كل موسم، والله الموفق والهادي إلىٰ الجنات.



١ أصول الرسالات

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾ (الأنفال: ١)

جملتان من آية عظيمة تجمعان مقاصد الرسالات، وغاية النبوات، وهي في أصلين عظيمين:

الأول: إصلاح ما بينك وبين الله تعالىٰ، وجماعه من الآية قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

والثاني: إصلاح ما بينك وبين الناس، ودلالته في الآية قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾.

وإليهما ترجع جميع التشريعات، وتنتظم في معناهما جملة من الآيات، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾، ففيها إصلاح ما بينك وبين الله بعبادته، وإصلاح ما بينك وبين الناس بالإحسان، وأعظمهم حقاً الوالدان.

فمن فقد الأول: لم ينفعه الثاني، كما في حديث ابن جدعان الذي أصلح ما بينه وبين الناس بعطائه، فقال ﷺ: (**لا ينفعه، إنه**

لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[1]؛ فهو لم يصلح ما بينه وبين الله بكفرانه.

ومن فقد الثاني: أضر بالأول، كما في حديث المرأة التي كانت تقوم الليل وتصوم النهار، فقال ﷺ: **(هي في النار)**[2]؛ لأنها لم تصلح ما بينها وبين الناس، فكانت تؤذي جيرانها، مع محاولة إصلاح ما بينها وبين الله بصلاتها وصيامها.

فتأمل هذه الثنائية المتلازمة المتكاملة.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل، رقم (٣٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: (١١٩)، والبزار: (١٩٠٢)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق: (٣٨٥) (٦١٦)، والحاكم: (٤/ ١٦٦)، والبيهقي في الشعب: (٩٥٤٥) و(٩٥٤٦)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

٢

ثلاثية الأسلوب الدعوي

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل: ١٢٥)

جمعت الآية الكريمة ثلاثية الأسلوب الدعوي، وهي:

١- **الأسلوب العلمي**: الذي يباحث لغة العلم المشتركة، وهو مقتضىٰ الكتاب والسنة، وعبر عنها بالحكمة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ (يوسف: ١٠٨).

٢- **الأسلوب الوعظي**: الذي يخاطب كوامن القلب، ترغيبًا، وترهيبًا، وعبر عنها بالموعظة الحسنة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ (البقرة: ٢٣١).

٣- **الأسلوب الفكري**: الذي يحاور القواسم العقلية، ويكون مع من لا يسلم بالنصوص النقلية، أو احتاج إلىٰ مزيد من الحجج اليقينية، وعبر عنها بالمجادلة بالتي هي أحسن، كما في

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

فالحكيم هو الذي يختار ما يناسب الحال من هذه الطرائق القرآنية الحكيمة.



٣ وسائل الدعوة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ (إبراهيم: ٤)

❋ تدل بمنطوقها علىٰ توافق اللسان بين الدعاة وأقوامهم.

❋ وتشير بفحواها ومقصودها إلىٰ تطوير وسائل الدعوة وأساليبها، بما يتناسب مع كل قوم، بشرط موافقة مقتضىٰ الرسالة.

وهذا يستلزم خبرة الداعية بحال قومه، بعد علمه بشرعه.

لذلك استفدنا من خبرة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتفيأنا ظلالها، حين قال في حادثة المعراج: (**ارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك؛ فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم**)[١].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، رقم: (٣٨٨٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلىٰ السماوات، وفرض الصلوات، رقم: (٢٥٩)، واللفظ له.

فكانت خبرته سببًا في تخفيف الصلاة من خمسين إلىٰ خمس مكتوبات، مع تحصيل أجر الخمسين مكتملات.

فالعلم بالشرائع، والخبرة بالوقائع: صنوان لا ينفكان، لمن أراد نشر الإيمان، وتحقيق الإحسان.

٤

حقيقة الشكر

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء: ٣)

أغرق الله تعالىٰ أهل الأرض لأجله، وكان أعظم وصفه شكره لربه؛ فعلم أن حقيقة التعبد قائمة علىٰ الشكر.

وهو ليس مجرد قول باللسان، ولكنه حقيقة في الجنان، تخضع لها الأركان.

فهو محاولة لبذل ما أمكن تجاه من أوجدك من العدم، وأفاض عليك سوابغ النعم، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾.

وكان من أسباب تعبد النبي ﷺ ما بينه بقوله: **(أفلا أكون عبدا شكورا)**[1]. ومن شكر اللسان التحديث بالنعم: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحىٰ: ١١)، وقال ﷺ: **(التحدث**

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، رقم: (٤٨٣٦)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم: (٢٨١٩).

بنعمة الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل: لا يشكر الكثير)[1].

ومن أجمل وأكمل وأجل ما قيل في معناه:

«الشكرُ بذلُ العبدِ ما أولاهُ مـولاهُ من نعماهُ في رضـاهُ»

(١) أخرجه البيهقي: (٤١٠٥)، وهو في السلسلة الصحيحة: (٦٦٧).

٥

أسباب الانحراف

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾
(الأحزاب: ٧٢)

بينت الآية الكريمة أن كل خلل يقع في الأرض مما ينافي رسالة السماء، من البغي والبغضاء، والشقاق والفحشاء: يرجع إلىٰ أحد سببين:

الأول: الظلم: وهو خلل قلبي إيماني، سببه شهوات المال، أو الجاه، أو النساء، كما قال ﷺ: **(فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء)**[١].

والثاني: الجهل: وهو خلل معرفي علمي، ويكون في التأويل، أو التأصيل، أو التنزيل.

فيُدفع الظلمُ بالإيمان.

ويرفع الجهلُ بالعلم.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، رقم: (٢٧٤٢).

ولذلك جُمع بين العلم والإيمان؛ لدفع الجهل والظلم في نصوص، منها قوله تعالىٰ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة: ١١)، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ (الروم: ٥٦).

فتأمل في هذا السبك القرآني؛ حيث حصر الأدواء، ووصف خلاصة الدواء.



٦ شناعة الغيبة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ (الحجرات: ١٢)

في هذا التشبيه تنويع لأساليب التبشيع، والتفظيع، لهذا الفعل الشنيع، ومنها:

١- الاستفهام الذي يدل علىٰ الإنكار بمجرد سماع صورة المثل.

٢- التعبير بالحب، وليس بمجرد الأكل؛ وكأن المغتاب محب لها، منتش بها.

٣- التعبير بالأكل، وكأنه عادة اعتادها، وحركة بفمه يقتات منها.

٤- اللحم: لأنه قوام البدن فينهشه، كما أن العرض قوام النفس فينتهكه.

٥- التعبير بأخيه: تلطف مع الملامة، فهو أخ لك، له حرمته مهما تباعد عنك.

٦-ميتا: فهو عاجز عن دفع شرك، كما أن الغائب لا يستطيع رد بغيك.

٧-والصورة العامة للمثل مما لا يُختلف في استخباثها، فناسبت الغيبة؛ لاستمتاع الناس بها، وتساهلهم فيها.

فهذه السبعة وغيرها من الوجوه تدفع الإنسان للمرابطة علىٰ حصون اللسان، فلا يَلغُ بالفساد في أعراض العباد.



٧ السعادة بالوحي

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ (طه: ٢)

مفهوم الآية أن القرآن نزل؛ لتحقيق الإيمان، والأمن والاطمئنان، وسكينة الروح، وحياة القلب، وانشراح الصدر، وطيب النفس، كما في آيات كثيرة، منها قوله تعالىٰ: : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ (الأنفال: ٢٤)، وقوله تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾(النحل: ٩٧).

فمتىٰ تحولت أي ممارسة دينية إلىٰ الظلم والضنك والشقاء، والبغي وسفك الدماء، والإفساد وقتل الأبرياء: فهي مبتوتة الصِّلة بالوحي، مقطوعة العُلقة بالدين الحق، قد طالها التحريف: إما في التنزيل، أو التأويل.

وقد جاء تأكيده في أواخر السورة أيضا في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣

وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ (طه: ١٢٣- ١٢٤).

فتناسق أولها وآخرها في تقرير حقيقة الحياة الطيبة في ظل الوحي الشريف.



٨ عاطفة التدين

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾

(غافر: ٢٦)

فطرة التدين حاجة ملحة، وضرورة مستقرة، فلابد أن تجد عند كل فرد أو مجتمع، جانبًا تعبديًا، أو موروثًا طقوسيًا، مهما تنوعت ثقافاته، واختلفت معطياته.

ولذلك حاول فرعون تحريك عاطفة الدين: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

فالتسويق لأي فكرة يستدعي وسائل لقبولها، ومخاطبة الوجدان الديني من أسهل هذه الوسائل، وأكثرها تأثيراً؛ لذلك زعم فرعون شفقته عليه، فوجدت دعواه رواجًا عند كثيرين: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ (الزخرف: ٥٤).

فلا تغتر بكل من يتباكىٰ علىٰ الدين، حتىٰ تتبين حقيقة القائل، فتميز بين المليء والعاطل، وتمحص الحق من الباطل: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).



٩ قواعد الفتن

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (النساء: ٨٣)

هذه الآية من أعظم الآيات الموجهة لموقف المؤمن من الفتن العامة، وتتجلى في جملة من التقعيدات، منها:

١-عدم المسارعة فيها خوضاً، وإذاعة وإشاعة، كما قال ﷺ: **(امسك عليك لسانك، وليسعك بيتك)**(١).

٢- التغرب من مواطنها، واجتناب مواقعها، كما قال صلى الله وسلم: **(تكون فتن النائم فيها خير من اليقظان)**(٢).

---

(١) أخرجه أحمد: (١٧٤٦٧) والتِّرمِذي، رقم: (٢٤٠٦)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٨٨٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم: (٢٨٨٦).

٣-أن المخرج من الفتن يكون باتباع الوحي، الذي جاء لتحقيق المصالح، ودرء المفاسد.

٤-الرد فيها إلىٰ البيان والتفصيل دون الإجمال؛ ولذلك ذكر الله تعالىٰ هنا «الرسول»؛ لأنه يُبين القرآن، وذكر «العلماء»؛ لأنهم يبينون السنة.

٥-صعوبة التأصيل والتنزيل في الفتن؛ لذلك عبر بلفظ الاستنباط في هذا الموضع فقط من القرآن؛ وفيه مشقة الاستخراج.

٦-أن الكلام في الفتن هو من اختصاص صفوة علماء الأمة، لا عمومهم، فضلاً عن طلابهم وعوامّهم.

٧-أن الأمور العامة لا تؤخذ علىٰ ظواهرها، بل لابد من قراءة ما بين سطورها، والتأني قبل التبنّي، والتعقّل دون تعجّل.

٨-فضل العلم، وأن الناس لا تستقيم أمورهم إلا بالعلماء الراسخين المصلحين، كما قال ﷺ: **(العلماء ورثة الأنبياء)**[1].

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب العلم، باب الحث علىٰ طلب العلم:)٢/ ١٢٤، والترمذي، كتاب العلم، باب فضل العلم علىٰ العبادة: (٥/ ٤٨). وابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلم والعالم: (١/ ٩٨). عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٠

استثمار العادات

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢)

من دقائق العبودية، التي تغفل عنها فآم من البشرية: تحويل العادات إلىٰ عبادات، واستثمار الدنيويات لتكون من الأخرويات.

فأكثر اليوم يصرف في الوظائف والمهن والمباحات، فبعض النيات والإرادات: تصير من جملة العبادات، وفي ميزان الحسنات، ومنها علىٰ سبيل الإشارات:

١- نية القوة علىٰ الطاعة بدنيا وماليا؛ بابتغاء المعايش.

٢- نية بر الوالدين بالتكسب؛ لتوفير مرغوباتهما.

٣- نية رعاية من تعول من الإخوة والزوجة والأولاد.

٤- نية صلة الأرحام بها، والكفاية في الواجب منها.

٥- نية إعفاف النفس من السؤال؛ فاليد العليا خير من اليد السفلىٰ.

٦- نية نفع الناس والإحسان إليهم؛ فخير الناس أنفعهم للناس.

٧- نية رفعة الأمة، وتكاملها، وتحقيق نهضتها، وعزتها.

٨- نية إدخال السرور علىٰ الآخرين، فهو من أحب الأعمال إلىٰ الله تعالىٰ.

٩- نية الإتقان في جميع الأعمال؛ فهي من المحبوبات إلىٰ الله، ولو في المباحات.

١٠- نية الاستمتاع بالنعم، والشكر عليها، ومعرفة قدرها.

فتلك عشرة كاملة!



١١

التوحيد والوحدة

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣)

وصية عظيمة من رب العالمين، لصفوة عباده المرسلين، وهي في تحقيق أصلين جامعين:

الأول: إقامة الدين: وأصله «كلمة التوحيد».

والثاني: عدم التفرق فيه: وأصله «توحيد الكلمة».

فهما قطب الرسالات، كما سبق، مع تنوع في العبارات.

وهي كذلك وصية الله تعالىٰ للمؤمنين: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ (آل عمران: ١٠٣): فاعتصام بالله أولاً، وعدم التفرق فيه ثانيـًا.

فعليه: كل خطوة نحو تحقيق:

(كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة):

هي خطوة في طريق أولي العزم من الرسل، وتنتظم في

سلكهم، وتتأسىٰ بهديهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠).

وكل خطوة ضدهما: هي من خطوات أعداء الرسل من شياطين الجن والإنس: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ (المائدة: ٩١).



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون: ٦٠)

ختم الله تعالىٰ صفات المؤمنين، بصفة من أعظم مقامات المتقين، وهي الوجل؛ ليبين أنها تأتي بعد التوثق بالعمل.

فهي خوف علىٰ أعماله، وهو لا يعلم حالها:

هل حبطت لرياء لاحقها، أو عجب خالطها، أو منّ وأذىٰ أعقبها؟!

أو قُبلت بمحض فضل ربه، الذي هي منة منه، من قبل عمله وبعده!

فيحمله وجله علىٰ تجنب الاستكبار، وعدم الاستكثار، ولزوم حالة الانكسار، واللهج بالاستغفار بالليل والنهار.

وهو سر الأمر بختم جلائل الأعمال بالاستغفار؛ وذلك تحقيقا لهذه الخصلة، ولإصلاح ما كان منقوضا، وجبر ما كان منقوصا:

فيستغفر بعد الصلوات المكتوبة، والحج، وقيام الليل، ومجالس الخير، وغيرها.

بل أُمر النبي ﷺ بختم أعظم حياة إيمانية بالاستغفار، كما في سورة النصر: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ (النصر: ٣)، فكل من عداه، أولىٰ بكثرة استغفار مولاه.



١٣
العلم والدعوة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٦٣)

ذكر الله تعالىٰ في هذه الآية الجامعة سببين رئيسين، وركنين ركينين؛ لتحقيق التقوىٰ، وهما:

١- أخذ ما في الكتاب بقوة: أي بقوة إيمان، وتعلم، وعمل.

٢- وذكر ما فيه: بتعليمه، والدعوة إليه.

ولم يذكر القوة هنا؛ إشارة إلىٰ الرفق في بيان الحق.

فبمجموع هذين الأصلين:

تتحقق للمجتمع تقواه، وينال العبد من ربه رضاه.

وخلاصتهما:

(العمل بعلم): في قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾.

و(والتعليم بحلم): في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾.



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٠﴾ (العنكبوت: ٦٠)

هذه الآية من أعظم آيات التوكل علىٰ الخلاّق، في طلب الأرزاق:

فكل هذه الدواب المتكاثرة، مع ضعفها، وصغرها، وعدم عقلها: تصبح ولا رزق لها تحمله علىٰ ظهرها، أو تدخره في خِدرها.

وهذا الإنسان مع قوة بدنه، وتدبيره، وعقله، وادخاره لطعامه، وجمعه لماله: تجده بعد كل هذا الاحتياط: هلوعـًا، جزوعـًا، منوعـًا!!!

مع أنه الأولىٰ بالتوكل علىٰ رب الأسباب، من هذه الدواب، لو كان من أولي الألباب.

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: (**لو أنكم تتوكلون علىٰ**

الله حق توكله: لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا)[1].

وقد أكد ما سبق بقوله: **(إن روح القدس نفث في روعي: إن نفسًا لا تموت حتىٰ تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)**[2].

بل قال ﷺ: **(إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله)**[3]؛ فإن الرزق ملازم في كل لحظة، بخلاف الأجل الذي لا يأتي إلا مرة، فتأمل!

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي (٢٣٤٤) وقال: حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه وابن ماجة (٤١٦٤) وابن حبان (٧٣٠) وصححه والحاكم (٤/ ٣٥٤) وصححه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية): (١٠/ ٢٦، ٢٧)، والبغوي في شرح السنة: (٤١١١-٤١١٣)، وصَححهُ الشَّيْخ الألباني في السلسلة الصَّحِيحَة: (٢٨٦٦).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط : (١ / ١٣٥ / ٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (١٧٠٣).

١٥

فساد الإلحاد

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾

(الطور: ٣٥)

هذه من أعظم الآيات في إبطال الإلحاد، وهو أكبر فساد، لدىٰ من طُمست فطرهم، ومُسخت عقولهم من العباد.

وخلاصة الحجة في هذه الآية- التي سمعها جبير بن مطعم: فكاد قلبه يطير لها، فأسلم في لحظتها[1]-: أن خلق الإنسان له أربعة احتمالات:

١-أنه خُلق من غير شيء: وهو ممتنع عقلاً؛ لأنه تحول من العدم إلىٰ الوجود بلا مؤثر خارجي، كمن يجد «جهازاً» فيزعم أنه وُجد من غير صانع!

٢-أنه خلقه إنسان آخر: وهو ممتنع أيضًا؛ لأن الآخر سيحتاج إلىٰ آخر، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية، وهو تسلسل يستحيل عقلاً.

(١) كما في صحيح

٣- أنه خَلق نفسه: وهو أعظم امتناعـًا مما سبق؛ لأنه كان عدمـًا فكيف اتصف بقدرته علىٰ الخلق! وهو معدوم أصلاً.

٤- فلم يبق إلا الاحتمال الرابع: وهو القطع بأن له خالقـًا، هو الأول الذي ليس قبله شيء، رب العالمين، كما هي فطرة الخلق أجمعين.

ولم يذكر الرابع في الآية؛ لأنها نتيجة يعلم تحققها مما سبق يقينـًا، كما قال الأخضري:

والحذفُ في بعض المقدماتِ   أو النتيجةِ لعلـــــمٍ آتـي



١٦ من الإنصاف

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

(الشعراء: ٢٠)

البقاء علىٰ الانطباع الأول مع تعاقب السنين وتبد الأحوال: دليل علىٰ ضعف البصر، وقلة البصيرة، وتصلب القلب، ورتابة النفس، وعدم ترقّيها.

فنظرتك:

للصغير: أنه مازال قاصراً!

وللمتعلم: أنه مازال جاهلاً!

وللمقصّر: أنه مازال غافلاً!

وللقوي: أنه مازال شديداً!

وللضعيف أنه مازال مهيناً!

وللعدو: أنه مازال متربصاً!

وللقريب: أنه مازال صفياً!

كلها نظرات قاصرة، لم تضع الحقائق في نصابها؛ ولذلك أنكر موسىٰ -عليه السلام- علىٰ قوم فرعون تعييره علىٰ فعل قام به قبل اهتدائه للكتاب والإيمان.

فمن العدل والإنصاف: تغيير القناعات، بحسب المعطيات، وهو من أسرار تقدم كثير من المجتمعات، التي تجاوزت عداواتها التقليدية، وتصوراتها المبيتة، وانطباعاتها المبطنة.

وصدق الرسول الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، الذي قال: (أحبب حبيبك هونـًا ما؛ فعسىٰ أن يكون بغيضك يومـًا ما، وأبغض بغيضك هونـًا ما؛ فعسىٰ أن يكون حبيبك يومـًا ما)[1].

(١) أخرجه الترمذي: (١٩٩٧)، والبخاري في الأدب المفرد (١٣٢١)، وصححه الألباني.



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢)

هذا التصوير القرآني من أعظم صور التحذير من القتل، وذلك بوجوه كثيرة، منها:

١- تعظيم قتل النفس في القلوب، والتنفير من ارتكابه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣)، فلم يرد وعيد مركب من خمس عقوبات متتالية في غيرها، وهي: جهنم، والخلود فيها، الغضب، واللعنة، والعذاب العظيم.

٢- أن مجرد القتل بغير نفس جرم، وإن كان بقصد حسن، وادعاء الإصلاح؛ لذلك عطف عليه الفساد في الأرض.

٣- فكأنما قتل الناس جميعاً؛ لأن جرأته علىٰ القتل توجب

جرأة غيره، فينتشر القتل بين الناس.

٤- كرامة الإنسان علىٰ الله؛ ففي قتل نفس واحدة: انتهاك لما كرمه الله تعالىٰ، فكأنه قتلهم جميعـًا.

٥- وكأنّ فيها تأكيدَ مطالبة الجميع بالقاتل، وعدم إيوائه؛ لأنه متعد علىٰ جنس الدم المعصوم.

٦- وتدل علىٰ أن العقوبة واحدة فيمن قتل نفسـًا أو نفوسـًا، وهي القصاص.

٧- فيها دلالة علىٰ تكافؤ جميع الدماء المحرمة، والمساواة بين بني آدم في أصل الحرمة.

٨- شبه المحافظة علىٰ النفس ورعايتها وإنقاذها بالإحياء لها، بل بإحياء الناس جميعـًا؛ ترغيبـًا فيها.

٩- ويدخل في الإحياء: جميع صور منع القتل قولاً وفعلاً، تعليمـًا وعملاً.

١٠- وفي المقابلة بين الموت والحياة: بيان بأنه من محض حق الله تعالىٰ الذي لا يجوز انتهاكه وجوداً وعدمـًا.

١١- السر في هذا التغليظ، -والله أعلم-: أن كل ذنب يمكن أن يتحلل منه فاعله إلا القتل، فلا سبيل له إلىٰ التحلل

من المقتول؛ فإنه وإن اقتُص منه لحق أوليائه: فيبقىٰ حق الميت معلقًا به، وهو من دقائق معنىٰ قوله ﷺ: **(لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا)**[1].

فانتهاك حرمته يجعل تحلله بأمره، ويصبح أسيرا لعفوه يوم حشره.

(١) رواه البخاري: كتاب الديات/باب قوله تعالىٰ: (ومن يقتل مؤمنًا متعمداً)، رقم: (٦٨٦٢)، عن ابن عمر رضي الله عنه.

١٨

حوائج الفطرة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠)

دلت الآية القرآنية، مع الحقائق الواقعية على أن الدين القيم وهو الإسلام متوافق مع الفطرة، ويغذي حوائجها الأربع، وهي:

١-**الحاجة العقلية**: فكل فطرة تفتقر إليها، وتطرب لتحصيلها؛ ولذلك كثرت مخاطبة القرآن والسنة للعقول والألباب والنهى.

٢-**الحاجة الغيبية**: فكل فطرة لابد أن تركن إلى غيب تأوي إليه، مهما اختلفت دياناتها، وتنوعت ثقافاتها.

٣-**الحاجة الحسية**: فالفطرة تتقوّى بالمحسوسات؛ ولذلك وُضعت الكعبة، وما فيها من آيات بينات.

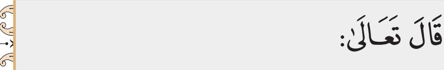
٤-**الحاجة العاطفية**: التي تتقلب بين المحبة والبغضاء، والفرح والبكاء، وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ (**النجم: ٤٣**).

فجاء الإسلام بالتوازن بين هذه المطالب؛ لتستقر الفطرة، وبدونها يقع الانحراف: إما إلىٰ النزعة الفلسفية لمن غلا في العقليات، أو الخرافية لمن غلا في المغيبات، أو الوثنية لمن غلا في الحسيات، أو الرهبنة لمن غلا في العاطفيات: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾، فتأمل في هذا الإحكام: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾.



١٩ الخلق العظيم

قَالَ تَعَالَىٰ:



﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)

هذه الآية من أعظم الآيات الدالة علىٰ فضل الأخلاق، من وجوه، منها:

أن الله تعالىٰ جعلها من أسباب اختيار النبي ﷺ للرسالة الخاتمة العامة، وقد ترجم ذلك الرسول الكريم بقوله: (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)[١].

وخلاصة محاسن الخصال، وجماع جلائل الخلال، اختصرتها في ثلاث نونات، وهي:

١- **سلامة الجنان**: وتحوي الصفات القلبية، كالحب، وعدم الغل، والحسد.

٢- **طيب اللسان**: وتتضمن الصفات القولية، كالصدق،

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم (٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: (٤٥).

وعدم الغيبة أو البذاءة.

٣-**بذل الإحسان:** وتنتظم الصفات الفعلية، كالكرم، والشجاعة، والعفاف.

وقد اجتمعت هذه الثلاثية الأخلاقية، في كثير من النصوص الشرعية، ومنها: قوله ﷺ: **(ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلن، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنىٰ والفقر)**[١].

فالخشية: تحقق خصال الجنان، وكلمة الحق: تجمع خلال اللسان، والقصد: يضبط جميع الأفعال.

فتأمل هذا التكامل القرآني النبوي.

(١) رواه البيهقي في الشعب (٦٨٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: (١٨٠٢).



٢٠ السعي المشكور

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩)

رسمت هذه الآية منهجـًا قويمـًا، وصراطـًا مستقيمـًا، للسعي المشكور، في أربعة أمور، تعتبر أركانـًا متتالية، وخطوات متتابعة، وهي:

١-**إرادة الآخرة**: أي الإخلاص لله تعالىٰ، دون رياء، أو سمعة، أو مفاخرة.

٢-**وسعىٰ لها**: فلا تكفي مجرد الأمنيات، بل لابد من سعي في الخيرات، والعمل بالطاعات، واجتناب المنكرات.

٣-**سعيها**: فليس كل سعي مقبولاً، حتىٰ يوافق ما جاء في الكتاب والسنة، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٤).

٤-**وهو مؤمن**: فكل ذلك لا بد أن يبنىٰ علىٰ قاعدة الإيمان بالله تعالىٰ، وبالغيبيات، وبما جاءت به الكتب والرسالات.

فمن حقق هذه الرباعية: كان من أصحاب السعي المشكور، والجنات والأجور.

ومن أخل بواحدة منها: فهو من أهل الثبور، إلا أن يشاء الحكيم الغفور.

٢١

العبادة والاستعانة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾

(الفاتحة: ٥)

جميع تدين العبد قائم علىٰ هاتين الجملتين: العبادة والاستعانة، وهما صنوان متلازمتان لا ينفكان.

ولذلك جمع الله تعالىٰ بينهما في كثير من الآيات، كقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ (الشورىٰ: ١٠).

وكذلك جمع النبي ﷺ بينهما، فكان يقول عند الذبح: **(اللهم منك ولك)**[١]، أي:

- منك: خَلقًا وإعانة ورزقًا وتوفيقًا وتيسيراً وعطاء.
- ولك: تعبداً وتقربًا وطاعة وامتثالاً وتذللاً وإرضاء.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٠٢٢)، وأبو داود (٢٧٩٥)، وابن ماجه (٣١٢١)، وحسنه الألباني في الإرواء: (٤/ ٣٥٠).

فكل عمل تقوم به فهو «منه»، وإن كنت موفقاً جعلته «له».

وبين هاتين المرتبتين منازل للسائرين، ومدارج للسالكين، تفنىٰ الأعمار بلا استيفائها، وتنقطع النفوس دون أدائها، كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ (عبس: ٢٣).



٢٢ التفسير بالسنة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤)

أُنزل القرآن العظيم، علىٰ النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم؛ ليبين لهم تأويله وتأصيله وتفصيله، فيسلكون به الصراط المستقيم، ويهتدون إلىٰ النهج القويم، كما قال ﷺ: **(تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي)**[١].

وكل التماس لفهمه بغير طريق مبيِّنه: فهو انحراف عن وجهته، واعتداء علىٰ حدود منزّله، وافتئات علىٰ وظيفة مبلّغه؛ ولذلك قال ﷺ: **(ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، يوشك شبعان علىٰ أريكته يقول: بيننا وبينكم هذا الكتاب، فما كان فيه من حلال**

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٩)، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، (١٥٩٤)، والحاكم (١/ ١٧١)، وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (٤٠).

أحللناه، وما كان فيه من حرام حرمناه، وإنه ليس كذلك)[1].

فكل من ادعىٰ تأويل القرآن بمعزل عن السنة: فهو متقول علىٰ الله تعالىٰ الذي قال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٦٩).

وبقدر جهل المفسر بالسنة: يضعف في البيان والحُجة، ويتنكب عن الهدىٰ والمحَجّة: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

(١) أخرجه أحمد: (٤/ ١٣٢)، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في كراهية كتابة العلم، رقم: (٢٦٦٥)، وابن ماجه في المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله -ﷺ- والتغليظ علىٰ من عارضه، رقم: (١٢).



قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ (آل عمران: ٧)

هذه الآية العظيمة تبين جانباً من الحكمة في وجود المتشابه في نصوص الوحي، وهو الابتلاء؛ لتمييز المحق من المبطل، ومن يتبع هداه ممن يعبد هواه.

فتكون الهداية والضلال بحسب التعامل مع القرآن: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ (البقرة: ٢٦).

ومن دقائق النظر، ومعالم الفكر، ما جاء في الأثر، من قول خير البشر ﷺ: («هلاك أمتي في الكتاب واللّبن». قالوا: يا رسول الله: ما الكتاب واللّبن؟ قال: «يتعلمون القرآن فيتأولونه على غير ما أنزل الله عز وجل، و يحبون اللّبن فيدعون الجماعات، والجمع، ويبدون»)[١].

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٢٧٧٨).

فالقرآن إذا فُسّر بغير تفسيره: دخلت الشبهات من أقطارها، فيهلكون بما هو مصدر هدايتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ (فصلت: ٤٤).

و«اللّبن»: دلالة علىٰ التعلق بالشهوات؛ لكونه من ألذ الطيبات، فينشغلون به عن الطاعات.

فهلاك من يهلك في الأرض لا يخرج عن هذين المُهلكين: الشبهات، والشهوات.



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢)

هذه الآية من أعظم الآيات التي تبعث على الطمأنينة واليقين، والتبشير بالتمكين، لهذا الدين.

فبدأت بهذه الصورة التي تتضمن التهكم بهم، وبيان حماقتهم، حين أرادوا إطفاء نور الله تعالىٰ الذي أضاءت له السماوات والأرض بأفواههم، الصغيرة مهما ارتفعت أصواتهم، والضعيفة وإن تعالت شبهاتهم، والخاسئة رغم اشتداد مؤامراتهم.

فتولىٰ الله تعالىٰ إتمام نوره، مع تمامه قبلاً وبعداً، وعدم تأثره بالمتطاولين عليه، والمتقدمين بين يديه!

كما قال ﷺ: **(ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار)**[(١)].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣)، والحاكم (٤/ ٤٧٧)، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو في السلسلة الصحيحة، رقم (٣).

فالمؤمن ملازم للفأل الحسن، مهما تتابعت حلقات الفتن، وتلاطمت أمواج المحن.



٢٥ معالم التربية

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧)

هذه الآية العظيمة -بقصتها البديعة، وألفاظها البليغة- ترسم سبل الرشاد، في تربية الأولاد؛ لحمايتهم من الفساد. وخلاصة قواعدها:

١-الدعاء لهم، حتىٰ قبل وجودهم؛ فقد دعا إبراهيم لابنه، وذريته من بعده.

٢-استشعار نعمة الله تعالىٰ بهبته، يشير إليه النص علىٰ اسم إسماعيل، منّة به.

٣-الاهتمام بهم، وإظهار محاسنهم، وتحسين تسميتهم، بالدلالة السابقة.

٤-إشغال أوقاتهم بما يفيدهم، وعدم تركهم سبهللاً في فراغهم.

٥-تكليفهم بجلائل الأعمال، والثقة بهم، والحذر من انتقاصهم.

٦-إشراكهم في أعمال الوالدين، مهما كانت مهمتهم يسيرة، مع الإشادة بهم.

٧-اصطحابهم في مواطن الكبار، وعدم استصغارهم.

٨-تعليمهم ما يفيدهم، كما في تعليم إبراهيم لابنه العمل والدعاء.

٩-إظهار حسن القدوة، وإيجاد نموذج للأسوة، وأساسه الأب.

١٠-الاهتمام بالعمل أكثر من القول، وبالمقاصد زيادة عن الوسائل.

فتلك عشرة كاملة، للتربية الشاملة، وتحت كل منها تفاصيل كثيرة.

٢٦

الأصناف الثلاثة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣٢)

قسمت الآية من أورثهم الله تعالىٰ أمانة الكتاب والتكليف إلىٰ ثلاثة أصناف:

١-ظالم لنفسه: بارتكابه للمنكرات، وإضاعته للمأمورات، فظلم نفسه بأن أرداها في المهلكات، وحرمها من الدرجات.

٢-مقتصد: باكتفائه بالواجبات، واجتنابه للموبقات، لكنه لم يضرب في باب القربات سهماً، ولم يجعل له في سوق المكرمات قسماً:

واحسرتاه تقضىٰ العمر وانصرمت

ساعاته بين ذل العجز والكسـل

والقوم قد أخذوا درب النجاة وقد

ساروا إلىٰ المطلب الأعلىٰ علىٰ مهلِ

٣-سابق بالخيرات: في حلبة الفرسان، الذين ركضوا في كل ميدان، يقربهم إلىٰ ربهم الرحيم الرحمن.

وقدوة هؤلاء الموفقين: جميع الأنبياء والمرسلين، الذين وصفهم رب العالمين، بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

٢٧

قطعية البعث

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ (النساء: ٨٧)

هذه الآية من أعظم الآيات في قطعية البعث، فبدأت بالتوحيد، ثم التهديد، ثم نفي الشك للتأكيد، وبيان صدق المجيد؛ لكثرة أدلته العقلية والفطرية، ومنها:

١- الخلق الأول من العدم: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ (ق: ١٥).

٢- خلق ما هو أعظم من الناس: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾ (غافر: ٥٧).

٣- وقوع البعث في أفراد وأمم: ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ (البقرة: ٢٥٩)، ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ ﴾ (البقرة: ٢٤٣).

٤- إحياء الأرض بعد موتها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ ﴾ (فصلت: ٣٩).

٥- تغير خصائص المخلوقات: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ (المؤمنون: ١١٥-١١٦).

٦- عدل الله في مجازاة المحسنين والمجرمين: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (القلم: ٣٥).

٧- حكمة الله في الخلق: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ (المؤمنون: ١١٥-١١٦).

٨- قدرة الله تعالى على المراحل المختلفة: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ (نوح: ١٣-١٤).

٩- كمال ملك الله دون من سواه: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٣).

١٠- تأكيد الخبر الصادق الذي لا معارض له: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ (النساء: ١٢٢).

فتلك عشرة، وأدلتها كثيرة محررة.



٢٨ يد السارق

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (المائدة: ٣٨)

كثير ممن يشغّب علىٰ هذا الحد القرآني، والحكم القطعي: يجهل الضمانات الشرعية التي تحول دون وقوعه، ومنها اختصاراً:

١- الزواجر الداخلية: من التربية الإيمانية، بالترغيب في الحلال، والترهيب من الحرام.

٢- الروادع الاجتماعية: من التواصي بالحق، والتناصح بين الخلق.

٣- الإلزام بالنفقة: لكل من يعول من أب، أو زوج، أو قريب.

٤- مشروعية الزكاة: أداءً للحوائج الأصلية لجميع أفراد المجتمع.

٥- بيت المال: واضطلاعه بمسؤولية سد الفاقة، وقضاء المطالب.

٦- إيقاف الحد: إذا أصاب المجتمع جائحة عامة.

٧- عدم وقوع الحد: إذا ثبت الاضطرار الذي يؤدي للهلاك.

٨- التشدد في شروط الحد: كالأخذ من الحرز، وبلوغ النصاب، والتكليف.

٩- العفو والستر: فقد ورد الترغيب فيه، قبل الرفع إلىٰ القضاء.

١٠- تأكد الوقوع: إما بإقرار، أو شهادة عدلين، وعدم قبول مجرد القرائن.

١١- درء الحد: إذا تعلقت به شبهة.

فمن تنكبها كانت نكالاً عليه؛ فإن الله:

❁ (عزيز)؛ في إيقاع حده، ❁ (حكيم)؛ في تحقيق ردعه.

٢٩

ضرورة العقل

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة: ٩١)

اجتمعت في الخمر جميع الأضرار المتعلقة بالضرورات الخمس، التي جاءت الشرائع بحفظها، وهي:

١- **حفظ الدين**: وبين الإضرار به بقوله: ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

٢- **حفظ النفس**: ويظهر في قوله: ﴿ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾.

٣- **حفظ العقل**: وهو أصل فسادها الذي سميت به؛ حيث ينحط من مصافّ العقلاء إلىٰ دركات البهيمية.

٤- **حفظ النسل**: ففاقد العقل، لا يملك أن يقع في الفواحش، كما قال ﷺ: (**الخمر أم الفواحش، وأكبر الكبائر، من شربها وقع**

علىٰ أمه، وخالته، وعمته)[1].

٥- **حفظ المال**: فمع كل تلك الأضرار: يبقىٰ تعاطيها إضراراً بالمال؛ لذاك لُعن بائعها ومبتاعها.

وصدق النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، حين قال: (**اجتنبوا الخمر؛ فإنَّها مفتاح كلِّ شر**)[2].

(١) أخرجه الطبراني (رقم ١١٣٧٢ ، ١١٤٩٨)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٥٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٤ / ١٤٥)، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٧٩٨).



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ (الحشر: ٢٣)

اسم السلام من الأسماء الحسنىٰ العظيمة، وينتظم جملة من المعاني الكريمة، ومنها:

١-الذي سلم من الند والشريك والمثيل.

٢-الذي سلم في صفات كماله، وأسماء جلاله.

٣-الذي سلم في أفعاله وخلقه وأرزاقه.

٤-الذي سلم في أقداره وقضائه وحكمته.

٥-الذي سلم في تشريعاته وأحكامه.

٦-الذي سلم العباد من ظلمه.

٧-الذي سلّم العباد بمقتضىٰ مشيئته.

٨-الذي أنزل دينه للسلام والأمن.

٩-الذي شرع التسليم بين عباده.

١٠-الذي يسلّم علىٰ عباده في الجنة.

فاللهم أنت السلام، ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام.

وتيمناً بهذا الاسم العظيم نأتي إلىٰ الختام.

والحمد لله أولاً وآخراً علىٰ الهدىٰ والتمام.

الفهرس